من تراب الطريق (٤٥٦) عماد الحقيقية(*)

في وقت لم تكن الألقاب تطلق إلاّ على قامات حقيقية ، ومعطيات شاهدة ، درج جيلنا ومن قبلنا على إضفاء إمارة الشعر وإطلاق لقب أمير الشعراء على الشاعر أحمد شوقي ، وخص الأستاذ أحمد لطفى السيد بلقب أستاذ الجيل ، وأقر للدكتور طه حسين بعمادة الأدب العربي .. لم يكن يطلق أيامها لقب الكاتب الكبير على كل من خط سطرًا أو أمسك قلمًا ، ولا كانت مثل هذه الألقاب تضفى بلا حساب على أنصاف الفنانين أو على كل ممثل وممثلة أو راقصة .. تذكرت ذلك وأنا أقع بالصدفة في أوراق أرشيفي على عرض كنت قد كتبته في ستينيات القرن الماضي لكتاب كان قد صدر عام ١٩٥٩ للدكتور طه حسين بعنوان : «من أدبنا المعاصر» لفت نظري أيامها أنه على كثرة شواغل عميد الأدب العربي بأمهات الكتب والمؤلفات التي أثرى بها المكتبة العربية ، لم ينسلخ عن الاهتمام بمن حوله من الأدباء والكتاب الكبار والأواسط والناشئة ، فيقرأ أعمالهم ويعقب عليها مقدما ومنوها ومشيرا وناقدا ، ليقدم إلى الناس من وما يرى أنه جدير بالتقديم .

على مدار عقد الخمسينيات من القرن الماضي كتب الأستاذ الدكتور العميد طه حسين إلى قراء جريدة الجمهورية (أيام زمان !) جملة مقالات في النقد الأدبي .. صور فيها انطباعاته وتقييمه لعدة أعمال أدبية كانت قد صدرت أيامها في مصر وفى بعض الأقطار العربية فضلا عن بعض البلاد

(*) المال ٩/ ٦/ ٢٠١٠ .

الأوروبية .. كما تناول في هذه المقالات بعض القضايا التي شغلت الأدباء والمفكرين ، فأدلى بدلوه فيما اختلفت أو تباينت فيه الآراء والاتجاهات أو الاختلافات ، جمعها في هذا الكتاب : «من أدبنا المعاصر» الذي صدرت أولى طبعاته سنة ١٩٥٩ فسارعت بالكتابة عنه إلى إذاعة صوت العرب في وقت كان فيه الإعلام حافظا لدوره الجاد الوقور في خدمة الفكر والأدب والثقافة .

بين دفتي هذا الكتاب لعميد الأدب العربي ، وقد مضى الآن على صدوره نصف قرن بالتمام والكمال ، ستة عشر مقالا عرض فيها لعدة كتاب وكتابات ، فكتب عن «هكذا خلقت» للدكتور محمد حسين هيكل صاحب القامة الرفيعة والكتابات المتميزة عن «حياة محمد» و«الفاروق عمر» و«عثمان» و«الصديق أبو بكر» .. و«جان جاك روسو» ، و«جان دارك» ، و« فى أوقات الفراغ» ، وقائمة طويلة من المؤلفات القيمة التى لم تمنعه المحاماة ولا الحقائب الوزارية العديدة التى حملها ولا رئاسته لحزب الأحرار الدستوريين ومجلس الشيوخ ، عن تأليفها وتقديمها للمكتبة العربية. وتابع عميد الأدب العربى وكتب ـ فى ذلك الوقت ـ عن ثروت أباظة ـ وكان أيامها من الناشئة ـ وعن روايته التى جسدت تليفزيونيًّا : «هارب من الأيام» .. ومثلها فيما أذكر الممثل الراحل الموهوب عبد الله غيث الشقيق الأصغر للأستاذ حمدى غيث المسرحى الكبير .. وكتب الأستاذ الدكتور والعميد ناقدًا ولافتًا ومنوهًا بالأستاذ نجيب محفوظ وروايته المتميزة «بين القصرين» .. وكتب عن الأديب التونسى محمود المِسْعَدِى وقصته التمثيلية «السد» .. وتناول بأستاذيته المعهودة ما كان مثارًا وقتها من آراء متباينة حول الفصحى والعامية كأسلوب للكتابة الأدبية ، ولقضية التجديد فى الشعر ، وأزمة الفن

فى عصرنا ، فضلًا عن بعض الترجمات والأشعار والأعمال الأدبية لشعراء وكتاب قدامى ومحدثين.

فى توقفه مع : «هكذا خلقت» للدكتور محمد حسين هيكل ، ينوه الكاتب على عودته إلى القصة العربية التى كان من السابقين إليها ، فى روايته : «زينب» ، ثم هجرها هجرًا طويلًا فأوحشها وأوحشته .

يزجى العميد إلى الكاتب الكبير أنه لافت فى قصته الجديدة ، أنه يخاطب القلب والشعور ، ويخاطب العقل .. فى صياغة سهلة عذبة بريئة من التبذل والابتذال جميعًا ، ويتحدث إلى القلب والشعور بحديث الحب الذى يشقى به الغير كما يشقى صاحبه ، ويتحدث إلى العقل بما تناوله من قيم لأعمال لاءمت الحق تارة وخالفته تارة أخرى ..

والقصة التى عنى العميد بتلخيصها تدور حول حياة فتاة أعطاها الله سبحانه وتعالى منذ صباها كل شيء .. ولكن الأمور دفعت بها فى مدارج الحياة إلى عبادة ذاتها ، فانتهى بها ذلك إلى الوقوع فى هاوية الخطأ غير مرة .. تمضى بها الحياة ، أو تمضى هى بها فى سلسلة متتابعة من اللطمات حتى تثوب فى النهاية إلى رشدها ، وتنشد بالتوبة غفران ومسح جرائرها!

لم تمنع صلة العميد بالدكتور هيكل ، من أن يأخذ على قصته بطء الإيقاع والإسراف فى تفاصيل قد تدعو إلى السأم ، فضلًا عن مآخذ يسيرة تتعلق بموضوع التبنى وقليل من الخطأ فى اللغة ، ولكنها ملاحظات لا يخفى العميد أنها لا تغضى من قدر الكتاب ، ولا تنتقص من قيمته الفنية ، ولا تزهد ـ على حد قوله ـ محبًّا للفن شغوفًا بالأدب الجدير بهذا الاسم فى أن يقرأ الكتاب حفياً به حريصًا على الاستمتاع بدقائقه.

لم أقصد بهذه السطور التعريف بطه حسين ، ولا بالكُتَّاب والأعمال التى كتب عنها ، وإنما قصدت أن أسترعى العناية إلى الفارق الهائل بين ما كانت عليه صحيفة حكومية (الجمهورية) فى ذلك الأوان ، وما صارت إليه بعض النشرات الرسمية التى ابتعدت فى أيامنا بُعدا كليًا عن الفن والأدب والثقافة ، وعن الجد والوقار ، وأوغلت فى أغراض صغيرة ونفاق رخيص .. ومع ذلك لست أحب أن أنهى هذه الكلمات دون عرض وجيز لرأى الدكتور طه حسين فى نقده وتقريظه ـ آنذاك ـ لرواية «بين القصرين» أول ثلاثية نجيب محفوظ . سجل الأستاذ العميد للرواية أنها على طولها لا تثير ملالة ، ولا يشعر القارئ لها بضعف أو نفور ، واستطاع نجيب محفوظ أن يحقق فيها تحقيقًا رائعًا : خصلتين .. يبلغ بهما الأثر الأدبي أقصى ما يقدر له من النُّجح.. وهما «الوحدة» التى لا تغيب ، و«التنوع» الذى يدرأ السأم ويأخذ القارئ إلى حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث ، فى إطار صور البيئة المصرية فى ذلك العصر أصدق تصوير.

هكذا كانوا وكانت الصحافة!!

فانظر إلام صرنا وصارت بعض الصحافة هذه الأيام !!

*****